

زهرة صفراء

إذا قلت أننا نحن الآدميين خالدون فقد تبدو المسألة مزاحا. ولكن الحقيقة هي أننا خالدون. أعرف ذلك عن طريق النفي، أعرف ذلك لأنني عرفت الانسان الغاني الوحيد. حكى لي قصته في محارة بـ rue Cambronne. كان سكران تماما، الى درجة ان قول الحقيقة لم يكن يكلفه اي شيء، دون ان يهमे ان يضحك صاحب المحارة والزبناء القدامى حتى كانت الخمر تخرج من عيونهم. لاشك انه رأى بعض الاهتمام مرسوما في وجهي، فقد التصق بي بثبات وانتهينا بالسماح لأنفسنا بترف الجلوس الى طاولة في ركن حيث يمكن ان نشرب ونتكلم في سلام. قال لي انه من متقاعدتي البلدية وان امرأته رجعت الى دار والديها لتقضي هناك مدة، وهذا مجرد طريقة مثل اية طريقة اخرى لقبول واقع انها هجرته. لم يكن عجوزا ولا جاهلا، كان وجهه هزيلا وعيناه عيني مسلول. كان في الواقع يشرب لينسى، وقد اخذ يصرح بذلك بعد كأس النبيذ الخامسة. ما شمعت عليه تلك الرائحة التي هي إمضاء باريس والتي يظهر انها لا تشم الا علينا نحن الأجانب. وكان يعتني بأظفاره وفي رأسه لم تكن توجد قشرة.

حكى أنه في احدى حفلات الخط 95 رأى فتى في حوالي الثالثة عشرة، وأنه بعد لحظة من النظر اليه اكتشف ان الفتى يشبهه كثيرا، أو على الأقل يشبه الذكرى التي كان يحتفظ بها عن نفسه في تلك السن. أخذ شيئا فشيئا يسلم بأنه يشبهه في كل شيء : الوجه واليدين، الخصلة التي تسدل على جبينه، العينين البعيدتين عن بعضهما، وكان يشبهه اكثر في خجله، في كيفية لودته بمنجلة حكايات مصورة، في حركة رد الشعر الى الوراء وفي الرعونة المحتمية للحركات. كان يشبهه الى درجة انه كاد ان يضحك لذلك، ولكن لما نزل الفتى في rue de Rennes نزل هو كذلك تاركا صديقا ينتظره خائبا في مونيارناس. فتش عن ذريعة ليتكلم مع الفتى، سأله عن شارع وجمع دون ان يفاجأ الآن صوتا كان صوت طفولته هو. كان الفتى متوجها الى ذاك الشارع نفسه، مشيا قليلا في خفر. حينئذ نزل عليه نوع من الوحي. لم يكن اي شيء مفهوما، غير انه كان شيئا يمكن ان يستغني عن الفهم، شيئا يغدو منطمسا أو سخيفا لما يحاول — كما يفعل الآن. — شرحه.

باختصار، وجد سيلا الى معرفة دار الفتى، وبالاختبار الذي كان يسبغه عليه ماض عمل فيه مدرب كشافا، فتح طريقه حتى ذلك الذي يعد حصن الحصون : البيت الفرنسي. وجد بؤسا بكرامة وأما عجوزا وخالا متقاعدا وقطين. بعد ذلك لم يكلفه كثيرا ان يكل اليه اخ له ابنة الذي كان في حوالي الرابعة عشرة، وصار الغلامان صديقين. وأخذ يذهب كل اسبوع الى دار لوك. كانت الأم تستقبله بقهوة أعيد طبخها، كانا يتكلمان عن الحرب، عن الاحتلال، عن لوك أيضا. ما كان قد بدأ كوشي، اخذ ينظم الآن بطريقة هندسية، شرع

يتخذ ذلك الشكل الذي يملو للناس ان يسموه قفرا. كان يمكن التعبير عن ذلك حتى بكلمات كل يوم : لوك كان هو مرة اخرى، لم يكن هناك فناء، كلنا خالدون.

— كلنا خالدون يا أخ. تصور، ما كان احد استطاع ان يثبت ذلك ويجيء دوري أنا. في حافلة 95. خطأ صغير في جهاز الآلة، طية في الزمان، تناسخ متزامن عوض ان يكون متعاقبا. لوك كان يجب ان يولد بعد موتي، وعوض ذلك... دون ان نعد المصادفة العجيبة : عثوري عليه في حافلة. اظن اني قلت لك ذلك، كان عبارة عن نوع من اليقين التام، بلا كلمات. كان ذلك والسلام. ولكن بعد ذلك بدأت الشكوك، لأن الانسان في تلك الأمور يعتبر نفسه غيبا او يشرب مسكنات. والى جانب الشكوك البراهين التي تقضي عليها الواحد بعد الآخر، البراهين على أي لم اكن مخفئا، على انه لم يكن هناك مجال للشك. ما سأقوله لك الآن هو ما يضحك هؤلاء السخيفين أكثر، لما ينظر لي احيانا ان احكي لهم. لوك لم يكن أنا مرة اخرى فقط، بل كان سيصدر مثلي انا، مثل هذا المسكين التعيس الذي يتكلم معك. كانت تكفي رؤيته وهو يلعب، رؤيته وهو يسقط بكيفية سيئة دائما، متسببا في وثوء رجل أو اخراج ترقوة، وتلك العواطف بارزة على الوجه، وذلك التورد الذي كان يصعد الى الوجه بمجرد ان تطرح عليه اي سؤال. أما الأم فبالعكس، كيف يعجبني الكلام، كيف يحكين للانسان اي شيء، ولو كان الفتى هناك يموت حياء، اغرب الأشياء الحميمة، طرافف السن الأول، رسوم الثنائي سنين، الأمراض... السيدة الطيبة ما كانت تشك في اي شيء، طبعاً، وكان الحال يلعب معي الشطرنج، كنت كأني واحد من العائلة، حتى اني سلفتهم مالا كي يصلوا الى آخر احد الشهور. ما كلفتنى معرفة ماضي لوك أي جهد، كان يكفي ادخال اسئلة بين المواضيع التي يهتم بها المسنون : روماتيزم الحال، البوابة الشريرة، السياسة. هكذا اخذت اعرف طفولة لوك بين بيادق الشطرنج وتأملات حول ثمن اللحم، وهكذا اخذ الاثبات يتحقق بلا اي خطأ. ولكن افهمني، بينما نطلب كأسا اخرى : لوك كان هو انا، ما كنت انا في طفولتي، ولكن لا تتصور ذلك كاستنساخ. الأحسن ان نقول إن ذلك كان صورة مشابهة، افهمت ؟، أقصد ان في السابعة من عمرينا وقع لي انفكاك في معصم ولوك وقع له في الترقوة، وفي التاسعة مرضنا بالحصبة والحُمى القرمزية على التوالي، زيادة على ذلك : كان التاريخ يتدخل يا أخ، انا بقيت مريضا بالحصبة خمسة عشر يوما بينما لوك عالجوه في اربعة ايام، التقدم الطبي وأشياء من هذا القبيل. كل شيء كان متشابها، ولهذا، وعلى سبيل المثال، يمكن ان يحدث أن يكون خباز الناصية تجسدا جديدا ل نابوليون، وهو لا يعرف ذلك لأن النظام ما تغير، لانه لا يمكن ايدا ان يلتقي بالحقيقة في حافلة. ولكن اذا تمكن بطريقة ما ان يعرف تلك الحقيقة، يمكن ان يفهم انه كرر وأنه يكرر الآن نابوليون، أن الانتقال من غاسل ألوان الى صاحب مخبزة كبيرة في مونبارناس هو نفس صورة القفزة من كورسيكا الى عرش فرنسا، وأنه اذا حفر شيئا فشيئا في تاريخ حياته سيجد اللحظات التي تقابل حملة مصر والزعامة وأوسترليتز، وربما ادرك كذلك ان شيئا ما سيحدث له مع مخبزته بعد سنين قليلة وأنه سيتهي

في سائنا هيلانة ربما تكون غرفة صغيرة في طابق سادس، ولكن مهزوما كذلك، محوطا كذلك بمياه الوحدة، فخورا كذلك بمخبزته التي كان امتلاكه اياها كطيران نسر سرعة. انت تدرك هذا، اليس كذلك ؟

أنا كنت أدرك ذلك، غير أنني قلت مدليا برأيي اننا في الطفولة نصاب كلنا بأمراض تقليدية في اجل محدد، وإنما يكاد يتكسر لنا كلنا شيء ونحن نلعب الكرة.

— عرفت، أنا ما تكلمت لك إلا عن المصادفات الظاهرة. مثلا، كون لوك يشبهني لم يكن ذا أهمية، ولكن الوحي في الحافلة كان مهما. الشيء المهم حقا هو التسلسل المنظم، وهذا يصعب شرحه لأنه يخص المزاج، ذكريات غامضة، حكايات الطفولة. في ذلك الوقت، اقصد لما كنت في سن لوك، مررت بفترة مريرة بدأت بمرض طويل جدا، بعد ذلك، اثناء النقاهة، ذهبت لألعب مع الأصدقاء فتكسرت احدى ذراعي، وما كدت اخرج من ذلك تماما حتى وقعت في حب اخت زميل في المدرسة، فتعذبت كما تعذب لما نكون عاجزين عن النظر في عيني فتاة تسخر منا. لوك مرض كذلك، ما كاد يتأثر للشفاء حتى استدعني للذهاب الى السرك، ولما كان ينزل من المدرج زلتي فانفك رسفه. بعد ذلك بقليل فاجأته امه ذات مساء يبكي جنب النافذة، يمدد يده معصر في يده، مندبل لم يكن من البيت.

بما ان لا بد ان يقوم احد بدور المعارض في هذه الحياة قلت ان غراميات الطفولة هي التهمة المحتملة للحدرد والجناب. ولكنني قبلت ان مسألة الطائرة كانت شيئا آخر. طائرة بمروحة يحركها نابض اهداه اياها في عيد ميلاده.

— لما اعطينه اياها تذكرت من جديد الميكانو التي اهدتني اياها امي لما كان عمري اربعة عشر عاما وتذكرت ما وقع لي. وقع اني كنت في الحديقة، رغم ان عاصفة صيفية كانت ستهب وكان الرعد يسمع في ذلك الوقت، وكنت بدأت أركب مرفاعا فوق طاولة الفسحة، قريبا من باب الشارع. سمعت احدا يناديني من البيت فاضطرت الى الدخول لحظة. لما رجعت لم اجد علية الميكانو وكان الباب مفتوحا. جهت وأنا اصرخ يائسا الى الشارع حيث ما كان يرى احد، وفي تلك اللحظة بالذات سقطت صاعقة على الشاليه المقابل. جرى كل ذلك بسرعة هائلة، وكنت اتذكره وأنا اعطي لوك الطائرة وهو ينظر اليها بالسعادة نفسها التي نظرت انا بها الى الميكانو. جاءت لي الأم بفتجان قهوة، وكنا نتبادل كلام كل يوم حين سمعنا صرخة. كان لوك قد جرى نحو النافذة كأنما يريد ان يلقي بنفسه في الفراغ. كان وجهه ابيض وعينه مليتين بالدموع، تمكن من ان يتمم ان الطائرة انحرفت في طولانها وخرجت بالضبط من فتحة النافذة المواربة. وأخذ يردد باكيا : « لا أراها، لا أراها ». سمعنا صراخا في الأسفل، دخل الخال يجري ليقول ان حريقا شب في الدار المقابلة. أفهمت الآن ؟ نعم، الأحسن ان نشرب كأسا أخرى.

بما أني ظللت صامتاً، قال الرجل بعد ذلك انه كان قد بدأ يفكر في لوك فقط، في مصير لوك. كانت امه تهيد ان ترسله الى مدرسة للفنون والخدمات الدينية ليفتح بتواضع ما كانت هي تسميه طريقه في الحياة، ولكن ذلك الطريق كان قد فتح وهو وحده — هو الذي لا يمكن ان يتكلم دون ان يعتبروه احمق ويعدوه الى الأبد عن لوك — كان يستطيع ان يقول للأُم وللخال ان لا شيء يرفع، انهما مهما فعلا فإن النتيجة ستكون هي نفسها، الأذلال، الورتين المثير للشرفقة، الستين الرتيبة، الخيبات التي تأخذ في قضم الملابس والنفس، الملجأ في وحدة حاقدة، في حمارة حارة. ولكن أسوأ ما في كل ذلك لم يكن هو مصير لوك، الأسوأ هو أن لوك كان نسي موت بدوره ورجل آخر سيكرر صورة لوك وصورته هو، حتى يموت ليدخل رجل آخر بدوره في العجلة. كان لوك حينذاك يكاد لا يهيمه، في الليل كان ارقه يقذف الى ابعد من ذلك، الى لوك آخر، الى آخرين سيسمون روبري او كلود او ميشيل، نظرية حتى اللانهاية من ناس مساكين يكررون الصورة دون ان يعلموا، موقنين انهم احرار مخبرون. كان السكر يدفع الرجل الى الحزن، ولم يكن يمكننا ابعاده عن ذلك.

— الآن يضحكون علي لما اقول لهم لوك مات بعد ذلك بشهور قليلة، هم اغبياء جدا ولا يمكن ان يفهموا أن... نعم، لا تنظر الي هكذا انت كذلك. مات بعد ذلك بشهور قليلة، بدأ كل شيء بالتهاب شعبي، هكذا كما اصبحت انا في تلك السن نفسها اصابة كبدية. أنا كانوا حملوني الى المستشفى ولكن ام لوك اصرت على ان يبقى في الدار ويعالج هناك، كنت أنا أكاد اذهب كل يوم، صاحباً معي احياناً ابن اخي ليلعب مع لوك. كان فقر ذاك البيت كبيراً جداً، الى درجة ان زيارتي كانت عزاء بكل ما في الكلمة من معنى : الصحبة للوك، علبه الزنكات او حلوى الشمس. تعودوا على ان اقوم أنا بشراء الأدوية، بعد ان تكلمت لهم عن صيدلية يخفصون لي فيها الأمان تخفيصاً خاصاً. في النهاية قبلوني ممرضاً للوك، ويمكن لك ان تتصور ان في بيت كذلك البيت، حيث يدخل الطبيب ويخرج دون اهتمام كبير، لا احد ينعم النظر كثيراً في هل الأعراض النهائية تتفق تماماً مع التشخيص الأول للمرض... لماذا تنظر الي هكذا ؟ اقلت شيئاً غير لائق ؟

لا لم يكن قد قال اي شيء غير لائق، خصوصاً الى ذلك الحد من الخمر. بل العكس تماماً، هذا اذا لم يكن تصور موت لوك المسكين كشيء شنيع يدل على ان اي انسان ميال الى الخيال يستطيع ان يبدأ توهاً في حافلة 95 وينيه جنب فراش يوجد فيه فتى يجتضر بصمت. لكي اطمئنه قلت له ذلك. ظل ينظر الى الغضاء برهة قبل أن يتكلم من جديد.

— طيب، كما تريد. الحقيقة هي اني في تلك الأسابيع (بعد الجنازة) احسست لأول مرة بشيء يمكن ان يشبه السعادة. كنت مازلت ازور من وقت لآخر ام لوك، احمل اليها علبه بسكويت، ولكنها في ذلك الوقت لم تكن تهمني كثيراً، لا هي ولا البيت، كنت كأني غارق في يقين عجيب، يقين بأنني هو أول فان، باحساسي ان حياتي مازالت تستهلك يوماً بعد يوم،

كأس خمر بعد كأس، وبأنها في الأخير سنتهي في اي مكان وفي اية ساعة، مكررة حتى النهاية مصير انسان مجهول مات لا احد يعرف اين ومتى، ولكن انا سأكون مت حقا، بلا لوك آخر يدخل في العجلة ليكرر بسخافة حياة سخيصة. حاول أن تفهم ذلك الكمال يا أخي، اغطني على تلك السعادة، على اللحظات التي دامت.

لأنها على ما كان يظهر لم تدم. الحمارة والخمر الرخيصة كانتا تبرهان على ذلك، والعينان اللتان تلمع فيهما هي ليست للجسم. ومع ذلك عاش بضعة شهور يتلذذ كل لحظة من كفافه اليومي، من فشله في الحياة الزوجية، من إفلاسه في الخمسين، وهو متأكد من فئانه الذي لا احد يستطيع ان يغير فيه شيئا. ذات مساء، بينما هو يقطع اللوكسمبورج، رأى زهرة.

— كانت في حافة مربع بستان، زهرة صفراء مثل كل الزهور. كنت توقفت لاشعل سيجارة وتشاغلت بالنظر اليها. كان الأمر كأن الزهرة تنظر الي هي كذلك، تلك الاتصالات، احيانا... أنت عارف، يحس بها اي انسان، ذاك الشيء الذي يسمونه الجمال. ذلك بالضبط، الزهرة كانت جميلة، كانت زهرة جميلة جدا. وأنا كان محكوما علي، كنت سأموت يوما بشكل نهائي. كانت الزهرة رائعة، دائما ستوجد زهور لناس المستقبل. فهمت العدم فجأة، ذاك الذي اعتقدت انه السلام، نهاية السلسلة. أنا كنت سأموت ولوك كان ميتا، لن تكون هناك أبدا زهرة لاحد مثلنا، لن يكون اي شيء، لن يكون اي شيء اطلاقا، والعدم هو ذلك، الا تكون هناك زهرة اخرى ابدا. احرق الوقيدة المشتعلة اصابعي. وثبت في الساحة الى حافلة ما عرفت الى أين كانت متوجهة وأخذت انظر بكيفية لا معقولة، انظر الى كل شيء يري في الشارع واني كل شيء موجود في الحافلة. لما وصلنا الى النهاية نزلت وركبت حافلة اخرى متوجهة الى الارباض. ركبت حافلات ونزلت منها المساء كله، حتى مضت فترة على هبوط الليل، وأنا افكر في الزهرة وفي لوك، وافتش بين الراكبين عن احد يشبه لوك، عن احد يشبهنا أنا ولوك، عن احد يمكن ان يكون انا مرة اخرى، عن احد انظر اليه وأنا عارف انه أنا، ثم اتركه بعدئذ يذهب دون ان اقول له شيئا، وأنا اكاد احميه ليواصل حياته التعيسة السخيفة، حياته الغبية الفاشلة الى حياة اخرى غبية فاشلة الى حياة اخرى غبية فاشلة الى حياة اخرى...

سدت.

ترجمة : محمد العشري

— خوليو كورتازار : كاتب ارجنتيني. ولد عام 1914. يعتبر احد روائي أميركا اللاتينية الكبار.

عن كتاب :

- FINAL DEL JUEGO. JULIO CORTAZAR. EDITORIAL SUDAMERICANA. BUENOS AIRES. ARGENTINA. 1972